

عولمة اللغة والتاريخ وفق المنظور القرآني ومسطرته

ومحاولة فهم منهج القرآن، وعرضه المفصل لتراث الأنبياء وفق المنهج العلمي التحليلي المعاصر، معتمداً على ثوابت اللغة والعقيدة وعلم الآثار والتاريخ والعلوم الأخرى، بعيداً عن المنهج التوراتي الأسطوري والعنصري الذي درج عليه الباحثون والمستشرقون واللاهوتيون الغربيون الذين اتخذوا من مسطرة التوراة ومسلّماتها أساساً في منهجهم وطريقة في تفسيرهم لعصور الأنبياء، وما حدث في تلك العصور التاريخية الموهلة في القدم.

كما يناقش الكتاب وحدة اللغة وأصلها في التاريخ البشري، ومحاولة استنباط معالم وملامح لغة آدم (عليه السلام) وصلتها بلغة القرآن، وتطور اللغات البشرية القديمة والحديثة من أصلها الأول (لغة آدم)، فإنه لا يقل أهمية في فهم تاريخ الفكر واللغة والحضارة الإنسانية، وهو ما يدعو الإنسان المعاصر إلى الإيمان بوحدة الأصل والجنس واللغة والثقافة والدين في تاريخ الإنسان، كما يعالج الكثير من النزعات العرقية والدينية والطائفية المتعصبة والمتشددة المنحرفة التي اتخذت من التعصب، ومن التفرقة أساساً لمنهجها الفكري والديني المغالي.

لقد اعتمد هذا الكتاب - من خلال محاوره العديدة - على الحقائق القرآنية كأساس لفهم تاريخ الإنسان على الأرض، وتطور لغته وفكره وحضارته، وذلك من خلال متابعة حياة الأنبياء وجغرافية حركتهم في الجزيرة العربية، وما حولها من الأرض المباركة،

عولمة اللغة والتاريخ وفق المنظور القرآني ومسطرته

لغة آدم ولغة القرآن وأثرها في لغات العالم



■ المؤلف: المؤرخ المهندس / علاء الدين المدرس

■ الناشر: عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، ٢٠٠٨م

■ عدد الصفحات: ٤١٩ صفحة

■ عرض: ناصر خطاب

طرح الحقيقة العلمية والتاريخية بشكل متعسف يدعم ثوابت الغرب ومقدساته وتراثهم الديني والحضاري، وفي الوقت نفسه يحاول تسفيه كل ما يمت بصلة بأمتنا وبكل الحقائق التي تجمعنا وتوصل لدورنا الحضاري والديني.

ومن تلك الحقائق الكثيرة التي اعترف بها بعض المنصفين الغربيين أمثال أرنولد توينبي ومايكل هارت في كتابه «المئة الأوائل» والمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها المعروف «شمس العرب تسطع على الغرب» وغيرهم من العلماء الذين تجاوزوا عقدة الصراع والخصومة القديمة، هي الحقيقة القرآنية التي يطرحها هذا الكتاب حول دور مكة المكرمة «أم القرى» في وجود الإنسان وفكره وتاريخه القديم، وصلتها الوثيقة بأطروحة وحدة الأصل البشري من خلال وحدة اللغة، وتطور اللغات العالمية من لغة آدم إلى لغة القرآن الذي أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، وكيف بدأ الإنسان رحلته على الأرض بعناية الله سبحانه، ورعايته، وتأسيس أول بيت لله وضع للناس على صعيدها؛ لكي يعبد حق عبادته، ولكي ينطلق الإنسان لبناء حضارته، وأداء دوره المتميز بين سائر المخلوقات وفق منهج الأنبياء ورسالة التوحيد التي جاء بها المرسلون لهداية الناس، وإقامة العدل والسلام في ربوع الأرض.

فأم القرى هي أصل الأمم والشعوب البشرية

ويعتمد هذا الكتاب على القرآن وما ذكر فيه، ويدعو إلى فهمه واستلهامه ومتابعة بيانه الرائع، فهمًا عربيًا علميًا صحيحًا، محاولاً الوصول بالإنسان المعاصر إلى ثقافة هادفة معتدلة وحدوية بعيداً عن الغلو والتشدد والتعصب والصراع الحضاري والفكري.

وحول عولة اللغة والتاريخ وفق المنظور القرآني

ومسطرته تدور أقسام هذا الكتاب.

القسم الأول

الصلة بين مكة وعصر آدم

خلق آدم في الجنة في عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه، ثم هبط هو وزوجته إلى الأرض وتحديدًا في أرض مكة، وعلى ثرى ترابها وبين وديانها وجبالها التي تحيط بالكعبة التي اختارها الله سبحانه لتكون مركز الأرض ومحور النشاط الإنساني لتحقيق مفهوم العبادة الحققة لله الواحد الأحد، ومخاربة الشرك والطفيان والانحراف الذي طالما كان يزحف على الإنسان في عصور التخلف والانحطاط التي رافقت مسيرة الإنسان على الأرض حين كان يتبع خطوات الشيطان والهوى والخرافة، ويرتكس إلى الرذيلة والظلام على مر العصور والحقب.

وسنرى فيما يطرحه هذا الكتاب من خلال حقائق علمية ودينية الخطأ البين في تلك التوجهات والأيدولوجيات المنحازة التي تحاول

• تجاوز عدد من المفكرين المنصفين الغربيين
أمثال أرنولد توينبي ومايكل هارت وزيغريد
هونكه وغيرهم عقدة الصراع والخصومة
القديمة بين الإسلام والغرب



ولقد اكتشف العلم الحديث أيضاً أن مكة هي
مركز الجاذبية الأرضية في العالم، فقد توصل
عالم أمريكي في علم الطبوغرافيا، وهو عالم
محاييد غير مدفوع لذلك بعقيدة دينية، لقد قام
هذا العالم في معمله، بجهد كبير، وخلال أشهر
طويلة - برصد ومتابعة خطوط الجاذبية
المغناطيسية الأرضية بالاستعانة بخرائط الأرض
وخواصها الفيزيائية والمغناطيسية والأدوات
والآلات المتحسسة والمراقبة للأمواج المغناطيسية
الأرضية وعلوم طبقات الأرض والمعادن المنصهرة
في باطن الأرض وغيرها، فاكتشف عن غير
قصد أن مركز الجاذبية الأرضية «مغناطيس
الأرض الكبير» هو موقع مكة المكرمة.

وقد أكد علماء الطبيعة والجيولوجيا أن هناك
سراً تكوينياً وحقيقة علمية فيها حكمة باهرة في
سبب جريان ماء زمزم وبركاته وكثرة مائه
بخلاف غيره من المنابع المائية، وأن هذا التفسير
يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموقع مكة في مركز
الجاذبية المغناطيسية الأرضية.

المنحدرة من أصل واحد وأب واحد هو آدم (عليه
السلام) الذي التقى زوجته حواء على صعيد
عرفات، كما تذكر الأدبيات الإسلامية وغيرها،
ومنها تكاثرت البشرية، وانتشرت في أنحاء
الأرض في الاتجاهات الأربعة، كما تؤكد ذلك
الرسالات التوحيدية جميعاً، وآخرها رسالة
الإسلام الخاتمة وقرآنه الخالد.

ولمكة مكانة خاصة ومحبة عميقة في قلب
النبي (ﷺ)، وهناك العديد من الأحاديث النبوية
والأحاديث التاريخية التي روتها السيرة الشاهدة
عليه مما يسلط الضوء على ذلك الحب النبوي
لأم القرى والبيت العتيق؛ قال رسول الله (ﷺ)
يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرام، حرمه الله يوم
خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام حرمة الله
إلى يوم القيامة، ما أحل لأحد فيه القتل غيري،
ولا يحل لأحد بعدي حتى تقوم الساعة، وما أحل
لي فيها إلا ساعة من نهار، وهو حرام حرمة الله
إلى أن تقوم الساعة لا يعضد شوكة ولا يختلى
خلاه ولا ينفر صيده» (سند أحمد).

وللكعبة الشريفة أسماء عديدة، منها: أم
الصباح، وأم القرى، والبلد، والبلدة، والبلد الأمين،
والبلد الحرام، وحرم الله، وبلد الله، وفاران،
والباسه، وطيبة، والقادش، والمقدسة، وقرية
النمل، والحاطمة، وكوثي، والسلام، والمذراء،
والوادي، والحرم، والقرية، وبكة، والعرش.

القسم الثاني

لغة آدم ولغة القرآن

إن قصة آدم القرآنية وانبثاق نشاطه على صعيد عرفات، ومن خلال جبال ووديان أم القرى - تستلزم في أول ما تستلزم أن يكون خلقه في أكمل وجه بعد أن كرمه الله بنفخة من روحه، وميزه عن باقي المخلوقات بالمقل والإرادة والقدرة على النطق والتفاهم مع بني جنسه من البشر وعلمه البيان الذي يستدعي قدرة التعبير عما يجول في خاطره وفي أعماقه من أفكار ومشاعر، وما يراه أمامه من مشاهد، ويستوجب ملكة الاستيعاب، وقدرة الفهم لما يطرح أمامه من أفكار ومفاهيم معنوية ومادية.

إن أهم الملامح والمميزات التي يمكن استنتاجها من لغة آدم يمكن حصرها وإيجازها في النقاط التالية:

- ملكة النطق والقدرة على الكلام المفهوم والمسموع.
- ملكة البيان والقدرة على التعبير عن الأفكار والتصورات التي يحس بها، والتي يمكن أن يتصورها من خلال محاكاة الطبيعة والتمايش معها.
- الأسماء والكلمات والحروف التي علمها الله له بعد أن خلقه وعرضها على الملائكة، وأمر الملائكة بعد أن رأوا ذلك السبق والتكريم

ولقد قام العالم البريطاني ريتشارد ريبرتون برحلة إلى الحجاز متخفياً في زي مغربي ومدعيًا أنه مسلم، وكان يجيد اللغة العربية، واندس بين الحجاج، واستطاع أن يحصل على قطعة من الحجر الأسود، وحملها معه إلى لندن، وهناك بدأ تجاربه عليها في المختبرات والمعامل الجيولوجية، فتأكد أن الحجر الأسود ليس حجراً أرضياً، بل هو حجر نازل من السماء، وسجل تلك الحقيقة في كتاب له اسمه «الحج إلى مكة والمدينة» الذي صدر بالإنجليزية سنة ١٨٥٦م، وهذا الاكتشاف العلمي هو تأكيد للحديث الشريف: «نزل الحجر الأسود من الجنة» سنن الترمذي.

وقد أكد العلم الحديث حقائق علمية مهمة تقول: «إن حركة الكون من أصغر دقائقه إلى أعظم وحداته وأجرامه تدور وتسير بنفس اتجاه الدوران في الطواف حول الكعبة بدءاً من دوران الإلكترون حول نفسه وحول نواة الذرة، ودوران القمر حول كوكب الأرض، ثم حركة الأرض ودورانها مع باقي الكواكب السيارة حول الشمس، وكذا دوران المجموعة الشمسية في فلك أكبر حول محور المجرة، وأخيراً دوران مجرتنا مع باقي مجرات الكون العظيمة حول محور الكون الذي لا يعلم كنهه وحجمه وسعته إلا الله سبحانه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

• لكل حرف عربي جرس موسيقي، ومعنى
طبيعي يميزه عن غيره من الحروف، ويعطي
له استقلالية تامة



(البقرة: ٢٠)، وأنه ذو منزلة رفيعة عند الله، منزلة
تفوق في رفعتها منزلة الملائكة المقربين؛ قال
تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِسَ﴾ (البقرة: ٢٤)، وأن الإنسان مخلوق امتاز
عن غيره من المخلوقات بالعلم والبيان قراءة
وكتابة.

القسم الثالث

جغرافية القرآن وتراث الأنبياء

حين نتحدث عن جغرافية القرآن وما أشار
إليه القرآن الكريم عن حياة الأنبياء والمواطنين
والمواقع المهمة التي تحركوا فيها، وتركوا بصمات
رسالتهم وأنوارهم كمعالم مهمة في طريق
البشرية لإرشادها وهدايتها إلى الصراط
المستقيم، وإلى المنهجية التي هي أقوم في حمل
الرسالة التي أنزلها الله سبحانه عليهم، وهم لها
مؤدون ومبلغون لما أراده سبحانه أتم الأداء وأكمل
التبليغ، لابد لنا قبل ذلك أن نتعرف على الضروقات
الجوهرية التي تميز جغرافية القرآن عن
جغرافية التوراة التي بشر بها الغرب منذ النهضة

بالسجود له احتراماً وتكريماً له ولرسالته
على الأرض.

• إحياء الرسالة التي كلف بها والدين الذي أنزله
الله عليه وإثراء مفاهيم التوحيد للغة آدم.

وهناك حقيقة أخرى تخص الحرف العربي
في لغة آدم؛ إذ إن لكل حرف عربي جرساً
موسيقياً ومعنىً طبيعياً يميزه عن غيره من
الحروف، ويعطي له استقلالية شبيهة باستقلالية
العناصر الكيميائية في الطبيعة.

وهناك نظرة وحقيقة قرآنية متميزة حول
اللغة تنبثق من الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ (البقرة:
٢١)، ومعنى ذلك أن الله سبحانه قد علم آدم
اللغة البشرية تامة كاملة، وتتمثل هذه النظرية أو
الأطروحة القرآنية في أن اللغة لدى الإنسان هي
في الأصل توقيف إلهي محض.

وهذه الرؤية القرآنية تتسجم مع الرؤية
الحضارية والعلمية الحقّة للإنسان، وأهم ركائز
تلك الرؤية هي: أن الإنسان كائن أسمى، إلهي
النشأة، وليس كائناً أدنى ذا أصل حيواني، قال
تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ
طِينٍ﴾ (ص: ٧١)، وأن الإنسان مخلوق تام الخلق،
كامل الخلق، منذ أن وجد، وذلك كحقيقة وواقع
قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾
(التين: ٤) وأنه خليفة الله في أرضه قال تعالى:
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

التوراة ومنهج سردها لتراث الأنبياء، وتاريخهم التوحيدي والمتناغم مع الإسلام الخاتم في الأسس والأصول والتعاليم، ونستطيع أن نؤكد أن أهم ما يميز الجغرافية التاريخية للأنبياء أنها كانت تدور حول مكة وأرض الجزيرة بشكل عام، وترتكز على عقيدة التوحيد، ومحاربة الشرك والأصنام والأهواء التي كانت تتشكل بفعل أهواء الشيطان والهوى والانحراف عن الفطرة ومنهج الإسلام الحنيف.

هوية الشعوب

ولعل من الأسس المهمة والجوهرية لتحديد هوية الشعوب والأقوام والأمم التي عاشت في التاريخ القديم، ونشطت في صناعة الحضارة البشرية ابتداءً من عصر آدم وحتى العصر المسيحي - هي تاريخ التوحيد وجغرافية الأنبياء واللفة وتطورها ابتداءً من عصر آدم، وأن جغرافية تلك الأقوام والشعوب والأمم وجغرافية القصص القرآني التي تعني الأماكن والمواطن التي احتضنت حركة الأنبياء التاريخية ونشاطهم الحضاري في عصورهم وعصور الأقوام التي واكبت حياتهم على الأرض - هذه الجغرافية في الواقع أحد جناحي الحقيقة التاريخية.

وفيما يخص عصر آدم (عليه السلام) تظهر إشكالية أصل الإنسان وبداية البشرية، فالعلم المادي يميل إلى النظرة التطورية الدارونية لأصل الإنسان، ويقول الدارونيون: إن سلالته تطورت من إحدى

الأوروبية الحديثة، ولا زالوا يبشرون بها. وأهم تلك المحطات في جغرافية القرآن، هي:

- البداية كانت في مكة وأرض الجزيرة لآدم أبي البشر وأول نبي.
- بيت المقدس ثاني بيت وضع للناس ومسرى المصطفى (ﷺ).
- الطوفان العظيم وقع على قوم نوح تحديداً، كما يشير القرآن، ولم يشمل الأرض كلها كما ادعت التوراة.

- جغرافية عاد وثمود ومدين والقبائل والأقوام البائدة.
- رفع قواعد البيت في عصر إبراهيم (عليه السلام).
- القحط العظيم في عصر يوسف (عليه السلام).
- غرق فرعون وهجرة بني إسرائيل في عصر موسى (عليه السلام).
- بابل وسبأ وإلياء، وعصر داود وسليمان (عليهما السلام).
- حكم آل عمران، وعصر زكريا ويحيى وعيسى ومريم (عليهم السلام).
- عصر المصطفى (ﷺ) ورسالة التوحيد الخاتمة.

إن التأمل في ملامح جغرافية القرآن وتميزه في طرح سير الأنبياء ومواطن حركتهم ودعوتهم، وتبشيرهم بالإسلام الحنيف ورسالة التوحيد - يعطي تصوراً مختلفاً وملامح مناقضة لجغرافية

• تؤكد الدراسات اللغوية عروبة اللاتينية وتشابها مع اللهجات العربية في بعض الألفاظ والحروف



اليوم اليهود والغرب والفرق الباطنية الضالة كالبهائية والقاديانية وغيرهما من فرق الفلو والمروق عن الدين والتوحيد، كما أنزله الله سبحانه، فهي محاولة بائسة لجمع كافة الأديان وكافة الكتب في دين واحد، وكتاب واحد لكي يختلط الحق بالباطل.

ويحاول هؤلاء التوراتيون وأتباعهم أن يبشروا بفكرة جمع الكتب السماوية الثلاثة: «التوراة، والإنجيل، والقرآن» في كتاب واحد بعد أن نجحوا في جمع التوراة والإنجيل في كتاب واحد على يد المبشر اللاهوتي مارتن لوتر - مؤسس المذهب البروتستانتي - قبل ما يناهز الخمسة قرون؛ مما أضفى الشرعية والقداسة على أساطير التوراة لدى المسيحيين البروتستانتين، ومهد لظهور التيارات الإنجيلية المتصهينة في أمريكا وأوروبا في العصر الحالي.

وأخيراً، هناك مسألة أخرى تخص تراث الأنبياء وصلته بالأقوام والأجناس والأمم، تلك هي قضية لغة الأنبياء أو اللغات التي تحدث بها الأنبياء، وتحديدًا الأجناس التي ينتمون إليها، وما

سلالات القروء، ويأتي الرد اللاهوتي التوراتي على تلك النظرة المادية بشكل خرافي غير علمي في تفسير أصل الإنسان يتصل بوصف خلق آدم وحواء، ودور الشيطان والحية في إخراجهما من الجنة، وتحديد عصر آدم ببضعة آلاف من السنين، كما نقرؤه في سفر التكوين، بينما يعطي المنظور القرآني استقلالاً واضحاً لأصل الإنسان عن باقي الحيوانات والكائنات وتكريمه بالنفخة الإلهية من روح الله، ولا يحدد في نصوصه وآياته عمراً زمنياً قريباً أو بعيداً لظهور الإنسان، بل يترك للعقل البشري مساهمة واسعة للتأمل والبحث والدراسة.

ومن الإشكالات الخطيرة الأخرى هي التي أفرزها التناقض الواضح بين الرؤية التوراتية اللاهوتية والرؤية المادية الغربية من جهة، ورؤية القرآن الكريم والنظرة الإسلامية بشكل عام من جهة أخرى فيما يتصل بمفهوم وحدة الدين القرآني ومفهوم وحدة الأديان اليهودي الغربي.

فرغم تأكيد القرآن على حقيقة وحدة الدين، التي أكدتها السنة الشريفة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) أي أن رسالة الله تعالى واحدة هي رسالة التوحيد التي جاء بها الأنبياء، وهي التي وضعها الله تعالى في كتابه العزيز «القرآن الكريم».

أما فكرة وحدة الأديان التي يقف وراءها

الأخرى التي احتكوا بها في تاريخهم الطويل، والتي يفترض أن يكونوا قد أخذوها منها.

وهناك ملاحظات يمكن أن نلمسها، خلال متابعتنا للأصول اللغوية للغة اللاتينية القديمة واللغة الفرنسية التي هي ابنتها أصلاً، فنجد حين نتفحص الكلمات اللاتينية والفرنسية المرادفة لها أن الفرق في الألفاظ والمعاني بين الفرنسية واللاتينية هي في كثير من الأحيان أكثر وأكبر من مثيلاتها بين اللاتينية والعربية، وأن الفروق تقل كثيراً بين الكلمات الفرنسية ذات الأصل العربي المباشر - كما يحددها القاموس والمعجم الفرنسي (Larousse) - وبين أصولها العربية.

كما يتحدث المؤلف في هذا القسم عن عروبة اللاتينية واللهجات العربية في لفظ حرف القاف وعروبة شعب اللاتيني، وتاريخ صنم اللات وبيت اللات في روما القديمة، والقحط العظيم وأسباب الهجرة والنزوح، كما يتحدث عن خارطة طريق الهجرة والنزوح لشعب اللاتين والسبثيون في لاتيوم، كما يذكر الأتروسكيون أو الرسانيون (أصحاب الرس) الذين سكنوا إيطاليا قبل اللاتين.

ويختتم المؤلف كتابه بملاحق، وهي عبارة عن جداول توضح الصلة بين لغات العالم ولغة القرآن، من خلال قاموس اللغات الحنيفية العربية المقارن. ■

يتبع ذلك من أصل اللغات والمجامع اللغوية، وتطور اللغات، وعلاقة اللغة واللسان ببيدايات ظهور الإنسان على الأرض، ورغم غموض هذا الموضوع وصعوبة البت فيه، حيث تفرقت أقوال علماء الأنثروبولوجي «الأجناس» إلى نظريات عديدة فيما يخص الأجناس واللغات وأصلها وبدايات تكوينها، إلا أننا نستطيع تكوين رؤية عامة مستمدة من القرآن والسنة، وخلاصتها: أن الناس كلهم لأدم وآدم من تراب».

القسم الرابع

أثر لغة القرآن في اللغات الأوروبية

يمكن للدارس أن يلتبس عروبة اللغة اللاتينية من خلال المفردات الكثيرة ذات الأصل العربي التي سيتم عرضها في الفقرات التالية من هذا القسم، ومن خلال جداول ملحق الكتاب، ويمكننا أن نستنتج الفكرة المتسقة مع أطروحة وحدة الأصل البشري القرآني، وهي أن اللاتين هم شعب أو مجموعة شعوب عروبية نزحت من منطقة أو مناطق عربية في فترات تاريخية قديمة، كما يمكن لنا أن نستنتج - كنتيجة لتلك الأطروحة - أنهم جزء من العرب البائدة التي ازدهرت في التاريخ القديم، كما سنلاحظ أن هناك تأثيراً كبيراً في تطوير الألفاظ ومعانيها، وذلك لبعد الزمان والمكان واختلاف الثقافات للشعوب والأمم التي شكلت الحضارة الإنسانية في تاريخها الغابر، وكذلك نلمس تأثير اللغات